كان يرقها يخطف ابصاري ترقرقت في عيني دموع تأثيري العميق لتلك الحكمة غير المتناهية رب الكون ومدبر المخلوقات سبحانه وتعالى ! (١)

النوابغ او كبار الرجال

بحث فلسفي اجتماعي لحضرة القس اوغسطين يرمرجي البغدادي

تعريفهم وحقيقة وجودهم

ليس بالعسير على من أُلقِيَ مُزاولة علم التأريخ أَن يقف على حقيقة بادية لعيني كل ذي بصيرة أَلا وهي تحققهُ انه في كل عصر وزمان وبين كل شعب وأمة وفي عهد كل مملكة ودولة قد ظهر فريق من الانام فاقوا عامة معاصريهم بما أَبدَوهُ من الذكاء العجيب والقريحة الوقادة والارادة المحكمة وذلك من فضل ما اتوه من الآلاء السنية والمنح البهية فبزغوا في سماء عصرهم شموساً ساطعة واقماراً نيرة مما خلد اسماءهم في صحف التأريخ ورفع لهم أعلام الفخر والذكر الطيب على مر الازمان والأدهر . وهؤلاء هم الذين سعوا في توسيع نطاق الاجتماع وبسط الحضارة وتأسيس المدن الفسيحة الارجاء وتأليف الممالك العظيمة وتقريب الابعاد وتيسير المواصلات وترقية الجمعية في معارج النجاح والفلاح والكمال

وفي رأسهم اولئك الذين انصرفوا في حياتهم الى اشرف ما في الانسان اي الى النفس فأقبلوا عليها مهتمين وكان إسعادُها دينهم وتهذيبُها دَيدنهم . ومنهم خدام الدين الآخذون على عاتقهم امر الارشاد وتحريض الورى على التقوى وعمل الخير ومسالمة العباد . وفيهم الفلاسفة والجهابذة الدائبون في البحث والتنقيب والاستدلال والتدوين غايةً منهم اخراج البشر من دياجير الجهل الى نور العرفان . وبينهم زمرة

---

(١) اطلب كتابهُ

Fabre : Souvenirs Entomologiques : *1re Série . p. 230 et passim*

الاطباء الساعون في صيانة البدن من الاسقام الطارئة عليه بكشفهم اسباب الادواء وملافاتهم اياها بالعلاجات الشافية . وفي طبقتهم المشترعون العظام اصحاب القوانين والدساتير الشهيرة . وفي عديدهم الحكام والقضاة والفقهاء الباسطون العدل والمحافظون على الحقوق . وفي جملتهم الملوك والسلاطين الكرام والقواد والامراء الشجعان والمحامون عن البلدان والاوطان والساسة المتحكمون والمخترعون الحاذقون والمكتشفون الماهرون وكل الذين اشتهروا بالاقبال على الامور العالية المناط بها خير الجمهور

تلك هي الحقيقة المنجلية لعين المؤرخ الحذق ليتتبع سياق الحوادث الجارية في كل عصر من الاعصر وعندها يقف مبلغ علمه . اما المفكر المدقق المتوخي ادراك الامور بعللها والعالم بان لا مسبَّب دون مسبِّب فتراه لا يلبث عند منتهى علم التأريخ بل يسعى الى ما وراءه باذلا جهده في سبْر هذه الحقيقة بقياس الاصول الفلسفية ويغوص في اعماق دركاتها مستنيرًا بنبراس القواعد الاجتماعية قصد العثور على ضالته المنشودة باطلاعه على سرّ تفوق كبار الرجال ونبوغهم وتمكنه من كشف المعمّى عن سبب نفوذهم واستيلائهم على اهل زمانهم

آراء الفلاسفة في مالهيتهم وتفوذهم في النفس البشرية

نبوغ كبار الرجال كما تقدم هو حقيقة تاريخية لا يختلف فيها اثنان . اما تعليله فلقد كان ولا يزال شغلا شاغلا للفلاسفة والمفكرين . فطالما قالوا فيما اذا كان النابغة هو وحده ومن ذات ما ازدان به من سمو الذكاء وعضاء العزم قادرا على الاستيلاء على اهل زمانه مما يمكنه من قلب الاحوال من طور الى طور والاخذ باعنة الامور وقيادة الالفة الاجتماعية حسب رايه الخاص ومشيئته المطلقة . ففي حلّ هذه المسألة قد تضاربت آراء الفلاسفة شأنها في غالب المسائل . فهناك فريق اثبت اطلاقًا وثمّ فريق انكر بتاتًا

فالموجبون هم اولئك الذين يذهبون الى ان النوابغ هم هم ولا غيرهم العلة الوحيدة لكل ما قد حازه الجنس البشري من الكمالات على اختلاف اصنافها وان تاريخ البشرية عامّهُ وخاصّهُ قديمهُ وحديثهُ إنْ هو بالحقيقة الّا تاريخ كبار الرجال

لانهم كانوا وهم اليوم ارباب العالم وقادة الورى واساتذة البشر لا بل زد على ذلك وقل ان كل ما بذلهُ القوم من النفس والنفيس والغالي والرخيص في سبيل مسا قد حصلوا عليه من المحسنات فالنوابغ وحدهم كانوا مبتكريه وجالبيه وماتحيه . وقصارى الكلام ان كل ما قد يبدو لاعيننا في العالم من نافع وشهي ولذيذ ما هو سوى نتاج قرائح كبار القوم ونوابغهم وتحقيق ما دار في خلدهم من الافكار المثلى والنيّات الفضلى

اما المنكرون فهم المبالغون في الحطّ من قدر ارباب القرائح القائلون بان لا حظّ للرجل الكبير بذات نفسه من كل ما يُعزى اليه من الكمال وحسن مزايا وخصال وانهُ ليس في شيء ممّا قد تسمو به الالفة من تقدُّم وتمدُّن وعمران وانما الفضل كلّهُ للمجتمع الذي يؤثر فيه تأثيره البالغ . على ان النابغة يولد وينشأ ويتدرج بين ظهراني مجتمع من المجتمعات محصور ومحدود فيه للوراثة والتربية والموائد والاخلاق العوامل الكبرى ممّا لا بدَّ ان يفعل في تكوّن قريحة ذاك الرجل ونموّها وتدرجها . فتراه قبل ان يتمكن من العمل والتصرف في مجتمعه قد سبق المجتمع عينه فطبع فيه اثرًا بليغاً . فاضحى معلول التطور قبل ان يكون علّتهُ . وان هو سعى في العمل بين قومهِ فلا ذريعة له لاجرآء ذلك سوى عمدهِ الى الوسائل التي تضعها بين يديه الألفة عينها . وعليه فلا يكاد أثر النوابغ يكون شيئاً يُذكر وان كان هناك شيء ذو شان فهو محصور في قدرتهم لفضل ما فيهم من الذكآء على سبق غيرهم في الوقوف على ميل الافكار وتطوُّر الاحوال ونزعات الاقوام مما يمكنهم من اعلان اسباب مجاري الامور ويساعدهم على اتباعها . فتفضلهم الوحيد ان كان ثمَّ فضل لا يزيد على فضل الروابي التي لارتفاعها تتلقى انوار الشمس البازغة قبل ان تستنير بها الوديان

الحكم الصواب في ذات عمل النوابغ وقدر فوزهم في الالفة

غير خاف على اللبيب ما في هذين الرأيين من التطرّف الفاحش وكيف انهما على طرفي نقيض امّا الحقيقة التي من شأنها الاعتدال فقائمة في وسطهما لا تحيد عنه

قدر ذرَّة وها نحن نتَّبع الكلام رغبةَ الوقوف عليها فنبحث اولًا عن طريقة اعمال الروابغ بذاتهم ثم عن كيفية تأثير تلك الاعمال في المجتمع الانساني

انَّ اعمال الروابغ اعمال بشريَّة صرفًا وطريقة مزاولتها لا تتعدَّى الطرائق البشرية بدليل المبدأ القائل : تجري الصنائع مجرى الطبائع . على ان ارباب القرائح مهما فاقوا في المزايا وتفرَّدوا في الخصال فلا يخرجون عن حيِّز البشرية والَّا لتغيَّر كيانهم . فلا يزالون اذًا بشرًا في طبعهم ومن ثمَّ في مزاولة اعمالهم

وكلٌّ يعلم ان في مقدِّمة افعال الانسان افعالهُ العقليَّة اذ الانسان انسانٌ بنفسه العاقلة حسب قول الشاعر :

لولا العقول لكان ادنى ضيغم ادنى الى شرفٍ من الانسانِ

وتُعرف النفس بافعالها والافعالُ النفسانيَّة على ثلاثة أضرُب وهي : الشعور والتعقُّل والارادة . ولا بدَّ لكل من هذه الافعال قوَّة تصدر عنها

مقرَّر ان النفس جوهر تامّ مستقلّ بذاته روحانيّ مجرَّد عن المادَّة والتركيب ومبدأ عاقل فعَّال عامل بالذات حرّ بذاته متصرف في اعماله الادبيَّة . بيد ان هذه النفس متَّحدة بالجسم اتحادا جوهريًا تامًّا يجعلها مفتقرة اليه في ابراز بعض افعالها اعني في ادراكها الجزئيات

(فالشعور) لا يتمّ الَّا بواسطة الحواسّ التي بها يحصل فعلها الاول . والحواس على ضربين : حواس خارجية وعددها خمس : السمع والبصر والشمّ والذوق واللمس وحواس باطنة وهي ايضا خمس : الحسّ المشترك والخيال والقوة الوهمية والمتخيِّلة والحافظة

وادراك النفس للمحسوسات يكمل بالحواس الباطنة امَّا الحواس الخارجة فهي آلة للباطنة . والشعور يفترض ثلاثة امور وهي الاول : وجود سبب مؤثر في الخارج وهو الجسم الذي يقعُ على احد الحواس الظاهرة فيطبع فيها صورته . الثاني : وجود آلة او حاسَّة خارجة في الجسم تنقل ذاك التأثير او تلك الصورة الى الداخل على طريق الاعصاب المختصة بكل واحدة منها . الثالث : وجود قوة باطنة تدرك ذاك التأثير او تلك الصورة اي تشعر بها . ومن ثمَّ فلا يتمّ فعل الشعور الَّا بانتقال صورة

المحسوس مفرداً معيّناً بصفاته . وهذه الصورة لا تحوي شيئاً من الجسم البتّة . وقد سُمّيت حسّية لان النفس لا تستخدم في ادراكها سوى الحواس

اما (التعقّل) وهو فعل النفس الثاني فيه تنتقل النفس من المحسوسات الجزئيّة الى المعقولات الكلّيّة فتعرف الشيء لا بصورته الفرديّة الجزئية الظاهرة كما هو الشأن في الشعور بل بماهيّته وخواصه الذاتية التي يقوم بها . ويحدث ذلك بعد ان تكون الصورة الحسّية قد عبرت على طريق الاعصاب من الخارج الى الدماغ مركز الحس المشترك . وهناك تطالعها النفس وبقوتها الوهمية تدرك معانيها الجزئية وبمخيّلتها تتصرّف بها بالتركيب والتفصيل وتقيس بعضها على بعض قياساً حسيّاً لا دخل فيه بعد للعقل لما هو معلوم من انّ موضوعهُ الكليّات . على انه مقرّر انّ المعرفة لا تنجز الّا بوجود المعروف في نفس العارف . فما الحيلة والنفس روحانية غرضها الكليات والمثل الخيالية جسمانية هيولية جزئية ؟ الحيلة هيّنة على النفس لما فيها من تلك القوة المفكّرة التي تتصرف بالمثل المفردة الحسّيّة فتجعلها مطلقةً كليّة بحيث يصير المحسوس الجزئي معقولاً كليّاً . وهذه القوة المتصرفة يقال لها العقل الفاعل او القوة المجرّدة ويسمّى فعلها تجريداً . وهي تختلف غاية الاختلاف عن القوة الشاعرة كما ان فعلها فعل التجريد يتميّز غاية التميّز عن الإدراك الحسّي كتميّز الصور الفكرية عن الصور الحسّية

اما موضوع معرفة العقل البشري بنوع عام فهو الوجود المطلق وموضوعها الخاص طالما النفس تبقى متحدة بالجسد هو الذوات غير المادية الكائنة في الموجودات المحسوسة المادّية . وهذه الكائنات لا تخلو وهي في حال التركيب من ان تكون اما جواهرَ او اعراضاً . ولا بدّ من ان تكون متّصفة بكم وكيف وزمان ومكان وفعل وانفعال ونسبة اضافية وهي كلها صفات عامّة لها دخل في تكوين الكائنات يدركها الانسان لاوّل وهلة بالبديهة كما انه بهذه القوة عينها يدرك الضروريات . وفي جملتها الاوّليات والمشاهدات والحسّيات والوجدانيات والفطريّات والمجرّبات . وهذه المبادئ الكلية مع الموجود المطلق الراجعة اليه هي ركن معارف الانسان الاولية وعليها مدار عقله وهي العامل الاول في كل افعاله . وعند وقوفه عليها لا مندوحة له للعدول والاعراض عنها شاء ام ابى وذلك لما بينها وبين العقل من المطابقة التامّة

بيد اننا نجد من ذاتنا ان العقل لا يقف عند هذا الحد من الكمال بل ان فيه خاصّة غير تلك وهي انه لا يكتفي بادراك صور المعقولات او الافكار ادراكاً بسيطاً فقط . بل يبلغ منه ان يتصرف بها مقابلاً بعضها ببعض ومثبتاً بقوة حكمه تارةً تناسُبها وطوراً تنافرها . ثم ينتقل بالاستدلال من البديهيّات الجليّة الى النظريّات الخفيّة . وبالقياس من نظريات معروفة الى نظريات مجهولة . وبهذه الطريقة يتوصل الى كشف الحجاب عن مخدّرات الحقائق النظرية وتوسيع نطاق المعارف والعلوم الاكتسابية

(الارادة) ومن الامور التي لا يشوبها ريب ان لكلّ موجود غايةً يتّجه اليها وهي مقصد قواه وافعاله فللانسان اذاً وهو من اشرف الموجودات غايةٌ يتوخّى بلوغها ولا يتجه اليها بمحرّك خارجي يدفعهُ الى عمله بل بقوة داخلية تحركهُ الى افعاله يقال لها الارادة . على اننا قد اسلفنا القول ان الانسان يدرك الكليات بعقله والجزئيات بحواسه . ولذا لزم ان يكون فيه ارادة عقلية تدفعه الى السعي وراء الخير الكلي وارادة حسية تحملهُ على استحصال الخير الجزئي . ومن هنا ينجم ان الانسان يحب ما يراه خيراً ملائماً له ويكره ما يجده شرّاً مضرّاً به . بيد ان هذا الحب وهذا الكره ينشآن فيه عن اختيار ورضى وحرّية مطلقة فيجد من نفسه انه ربُّ افكاره واشواقه وافعاله .

وفعل الارادة هذا يفترض أمرين : اولهما ان يدرك العقل الخير اولاً . ثانيهما ان تقصده الارادة وترغب فيه اذ لا يراد الشيء الّا بعد عرفانه . وبذلك تستدلّ على ان الارادة قوة عمياء لا تدرك شيئاً من ذاتها ما لم تر العقل مدركهُ فهو دليلها الى الخير الذي تسعى وراءه فاذا ظهر لها الخير الكامل اندفعت اليه كل الاندفاع لوجودها فيه ما يملأ كل اشواقها ويشفي ويبرّد غليل هيامها فلا يبقى لها رغبة البتة في خير آخر بعد حصولها عليه . واذا ظهر لها الخير الجزئي فلا تميل اليه ميلها الى ذاك الاول لخلوّه من ملء ما تشتهيه . وان وجدت فيه بعض الارتياح فلا تقصد بذلك اتخاذها اياه غايتها القصوى بل تجعله سبيلاً لخير غيره وذريعةً لنيل ما فوقهُ وتبقى حرّة في شأنه مخيّرة الانعطاف نحو غيره ولذا ترى الانسان لا يتمالك نفسه من السعي وراء السعادة التي هي الخير الاعظم المطلق لا تردُّد له في قبولها ولا اختيار له في

العدول عنها . واما اذا وجد خيراً جزئياً او حسنة من الحسنات تردَّد في قبولها لا بل رفضها اذا رأى ان غيرها افضلُ منها

وجملة القول ان الارادة تميل ميلاً كلياً دون تردد كلّما رأت الخير الاعظم او السعادة . واما الخيرات الجزئية فميلها اليها يزداد بازدياد معرفة العقل لتلك الخيرات واشتداد الملاءمة بينها هي الارادة وبين الخيرات المذكورة

مزية النوابغ في اعمالهم البشرية

هذا هو منهاج العمل عند البشر عموماً وعند اهل الذكاء خصوصاً مع ما بين الفريقين من عظيم التفاوت في درجاته . على ان تلك القوى وتلك الافعال حسيَّة كانت او عقلية او ارادية قد تبلغ في النوابغ مبلغاً من الكمال تقصر كل القصور عن الوصول اليه في من سواهم . فمن حيث الشعور ترى الداهية مزداناً بكل ما يقتضي له من حاسات ظاهرة او باطنة ولا سيَّما ما يتعلَّق بالسمع والبصر خارجاً وبالحافظة والمخيلة داخلاً مما يفترض فيه بدناً حائزاً كل الصفات المقوّمة لكيانه من بنية قوية واعضاء متناسقة وعضلات متينة ودم غزير زاخر يتدفَّق من قلب ملؤهُ الحياة واعصاب شديدة منتبهة ودماغ واسع مما يجعل هذا الجسم لائقاً لخدمة القوى العليا وقادراً على الثبات تحت وقر اعمال النفس العقليَّة . اما نفس النابغة فحدِّث عن سموها ورقيها ولا حرجَ فانها كاملة الخواصّ مزدانة بقوى عجيبة من عقلية شأنها التجريد والاستدلال والقياس . وارادية يقوم فعلها في توخي الغاية والبحث عن دواعي العمل والذرائع المقتضى اتخاذها للفوز بالمطلوب . وهذا مما يفيدك عن الملاءمة التامَّة الواجب وجودها بين نفس النابغة وجسمه . اذ ما الفائدة من وجود آلة بديعة القوام وهي الجسم الكامل الصفات بين يدي فاعل عاجز جاهل اعني به النفس الجامدة الخاملة ؟ واي خير يُرجى من وجود فاعل حاذق ماهر وهو النفس الراقية في يده آلة ساقطة معيبة اعني الجسم النحيف الهزيل العليل . ولذا لله درُّ فيلسوف النصرانية القديس توما الاكويني من قائل : « من شأن الابدان البديعة الكيان ان تنضمّ اليها نفوس سامية الذكاء والعرفان »

وسمو هذه القوة العقلية في نفس النابغة انما يتوقف على ان صاحبها يدرك

الامور بعضاء فكر آية في بابه ويتمّ ذاك الفعل بخفّة يُقضى لها العجبُ العجاب . فانه يرى حالاً وبلحظة عين ما في المقدّمات القياسية من النتائج الجمّة التي لا تستخرجها العامّة الّا بعد العناء الجسيم والزمن الطويل . وكافي بفعل تعقّله هذا لا يُعدّ بعد من قبيل التجريد والاستدلال والقياس بل ضرباً من النظر المحض او البديهة وكافي بجميع الحقائق النظرية البعيدة الغور العسرة الاستقصاء ليست الا بمثابة مبادئ اوّلية يحيط بها عقل النابغة علما وذلك بمجرد القاء النظر عليها

والسرّ في هذا النمط العجيب من الادراك قائم في هذا الامر وهو ان الانسان من ذات طبعه قد وُجد في سلّم الكائنات وسطاً بين البهائم العجماء والارواح المنفصلة المحضة . بيد ان الناس وان كانوا مشتركين في النوع فلا تستوي فيهم المدارك . فادنى مراتب البشر متصلٌ بالبهائم وهم اوطأ درجة في تجريد الافكار عن الخواص الحسية . والذين اوسطهم مرتبة فالمجرّدة فيهم اقوى وافعل بيد انها شديدة البطء في العمل . واما ذوو الذكاء الوافر وهم اهل المرتبة العليا فالمجرّدة تسمو فيهم سموا عجيباً وتنفذ نفوذاً بليغاً مما لا تحسب بعد معه في شيء من القوة المتعقلة بل ضرباً من البديهة . فترفع بذلك اصحابها من طبقات البشر وتقرّبهم الى طغمات الارواح الملائكية

وشأن ارادة النابغة شأن عقله فانها تسمو سموّه وتنفذ نفوذه وذلك لما قد عُرفت به من السَّيْر على خطواته والاستنارة بمصباح نوره البديهي ممّا يجعلها قادرة على ان تقف بسرعة غريبة على الغاية المقصودة والطرق المؤدية اليها فتجنح اليها كلّ الجنوح دون تردّد بل بعزم وحزم مكين . وكما ان الروح البسيط يعزم بحرّية واختيار ودون توقّف ولا مراجعة فالنابغة الجدير بان ينزّل منزلة الارواح ينوي عازماً ويُقدم عاجلاً

وصفوة القول ان النابغة يأتي اعماله بطريقة بشرية اعني بالشعور في امر قوة حسّه وبالتجريد والاستدلال والقياس في شأن عقله وبالمراجعة والمفاوضة فيما يتوسط بارادته . اما الذي يفرقه عن غيره فهو هذه المزية وهي انّ في وُسعه ان يقبض من ساعته وبخفة عجيبة على ناصية الحدّ الاوسط من القياس ممّا تضطرّ النتائج معه الى الانقياد اليه خاضعةً صاغرةً . وفي قدرته ايضاً ان يكشف القناع عن الوسائل

العناية فيعمد اليها بعزم وإقدام . وهذا هو السرّ في نبوغه بين امثاله وهذا الذي يفرده عنهم ويخفضه ببعد النظر وغريب البداهة ومضاء العزيمة مما يجعلهُ جديرا بان يلقّب بكل صواب بالحساس الانبل والعاقل الاكمل والجازم الأمثل

أثر النوابغ في احوال زمانهم

قد عرفنا من هم النوابغ وما هي مزيّة اعمالهم بحدّ ذاتهم . فما القول بعد الذي رأيناه في قدر فعلهم وتأثيرهم في تطوّرات مجتمعهم؟ للجواب عن ذلك جواباً شافياً لا بدّ لنا من تمهيد

معلوم ان الزمان في تطوير دائم يتقلّب من حال الى حال فلا يُعرَض له قرار مع المحافظة على كيانه الجوهري الاساسي . وتبيانهُ انه اذا كانت الامة البشرية مؤلفة من افراد كثيرة كان شان المجتمع شأن الفرد في باب المعرفة والعلم . على اننا قد تقدّم لنا إفاضة الكلام في ان عقل الفرد اذا وقف بازاء موضوع معرفته وهو الحق لا يخلو من ان يكون على حالين : اولها حال اضطرار وثانيهما حال اختيار . فحاله حال اضطرار عند ادراك الموجود المطلق وما يرجع اليه من المبادى الضرورية . وحالهُ حال اختيار عند استدلالهِ عن الموضوعات النظرية . هذا ما يجري عند الفرد وهو عينه جارٍ في المجتمع لكونهِ مجموع افراد البشر . وعليه ترى اولئك الافراد على الاطلاق جامعي الراي اضطرارًا على التسليم بالامور الاولية في كل صنف من اصناف علومهم ومعارفهم نظريّة كانت او عمليّة فلسفية او طبيعيّة اجتماعيّة او سياسيّة . واما الامور النظرية التي تحصل بالقياس بعد العناء وشحذ القريحة فتتضارب فيها اقوالهم وتتلاكم آراؤهم . والسبب في ذلك ان العقل سواء اعتبر في الفرد ام في الجمعية لا يدرك من تلك الحقائق الّا وجها من الاوجه مما يبقى معه حرًا في الاتجاه او الانفصال عن اي وجه من اوجهها . وهذا هو السرّ في تولّد الاراء التي تسمّى مذاهب اذا نُسّقت وبقيت نظريّة ويُطلَق عليها اسم طرائق اذا وُضعت في العمل . زد على ذلك ان الطرائق اذا تمكنت في الالفة وتنازعت وغالبت بعضها بعضاً نشأ التطوّر . واذا نضج التطور كانت عاقبته الانقلاب على اختلاف انواعه سواء كان ذلك في عالم العلم او الاجتماع او السياسة

فاذا عرفت هذا زدناك علماً انَّ للنابغة أثرًا جليلًا في كل انقلاب يحدث في العالم . وهذا يطلب شرطين وهما ان يكون للداهية ارادة صادقة لإجراء ذلك الأثر وان يجد من ذاته مقدرة على اتيانه

امَّا قصد النابغة للتأثير في احوال عصره فانهُ ينشأ في صدر النابغة لوقوفه على عيوب مجتمعهِ وما احراه بذلك من غيره اذ قد تحقَّقنا فيه من سمو الطريقة في استطلاع سرائر الامور . وما اجدرَه ان يرى رؤية جليَّة ما قد اعترى جيلهُ من الشوائب والعصائب والآفات ممَّا يحصل له معه صورة واضحة عن الحال المعاكسة المرغوب فيها لمجتمعهِ

زد على ذلك انهُ اذ كانت الارادة كما سبق الاثبات ميَّالة الى الخير الذي يقدِّمه لها العقل فعند ما يدرك النابغة بتوقُّد ذهنه حالة زمانه السيئة او الناقصة ويقف بديهاً على ما يقتضي عملهُ لإصلاح حال قومه وترقيتهم ونقلهم من طور مضرّ الى طور يتوسَّم فيه الخير لهم ترى لارادة هذا الرجل ذي النفس السامية والهمَّة العالية تندفع اي اندفاع الى تلك الغاية المتوخَّاة مائلة اليها ميلًا هذه شدَّته حتى انها لا يقرّ لها قرار ما لم تفزْ بذلك الخير المشتهى . فالنابغة اذًا هو مَن سعى غاية السعي وبعزم وإقدام لا يل بشوق وهيام الى ازالة ما يجدهُ في جيله من عيوب ونقصان وجلب ما يعرفه جزيل الفائدة وكبير العائدة للجمهور

بيد اننا لنحيد عن محجَّة الصواب ان اتَّبعنا اصحاب الراي الاول فعزونا قوة ادراك تلك الامور وقصد اجرائها الى النوابغ وحدهم دون غيرهم لان الامر الخاصّ بهم بمعزل عن سواهم هو تفوقهم المذهل في الوقوف على تلك الشؤون وإقدامهم العجيب على اتمامها وهذا ما يصدق فيه ارباب الرأي الاول . امَّا الموضوع الذي يفعل فيه عقلهم وتؤثر فيه ارادتهم فهيئته لهم المنشأ الذي وُلدوا فيه والامَّة التي عاشوا في وسطها والتربية التي تهذَّبوا طبقًا لاصولها والمعارف التي تلقَّنوها . وفي هذا المعنى قد اصاب اصحاب القول الثاني

امَّا ما يتعلق بشان مقدرة النابغة على اجراء ذلك الانقلاب فاعلم ان ليس لارباب القرائح في ذلك الامر قدرةٌ شاملة ولا سلطة مطلقة . اجل اننا لا نجحد ان لهم في مثل تلك الاحوال من التأثير ابلغهُ ومن النفوذ اعظمهُ ممَّا يوعلهم الى دفع الجمهور الى ما فيه الخير وذلك بفضل ما أوتوه من مضاء الفكر وقوة استطلاع كنه الامور

وشدّة الغريزة ودراية التوسّل بالذرائع الملائمة فيصبحون بذلك الركن الاساسي للعمل والمحرّك الاوّل لانشاء المشاريع الكبيرة وتدبير الشؤون المهمّة . بيد انهم ليسوا في شيء من ذات ما عندهم في استنباط وابتكار ما يحملون قومهم عليه ويسيرون بهم اليه لكون موضوعه قد اتاهم من فضل الكمالات المكتسبة قبلا والكامنة في المجتمع وفي احوال الجمهور العقلية والادبية والاجتماعية والسياسية

خلاصة المقال

النتيجة الشاملة الجديرة استخراجها من هذا المقال كلّه هي ان النوابغ فئة من البشر قد أنعم عليهم من العلاء بمواهب طبيعيّة اضافوا اليها مزايا اكتسابية جعلتهم يفوقون اهل عصرهم في مزاولة اعمالهم فازدانوا من البدن بأقواه واكمله ومن النفس بأبهاها وأسماها ومن الشعور بأدقّه وارقّه ومن العقل بامضاه واثقبه ومن الارادة باحكمها واحزمها فكانوا ولا يزالون في كل عصر آية الله في خلقه وذلك باحاطتهم بأغوص الامور وابعدها غورًا ممّا عجزت العامّة عن نيله وتمكّنوا من نقل الالفة من حال سيّئ الى حال صالح ومن حال حسن الى احسن فجاراهم في ذا السبيل قومهم وانقادوا اليهم عن رضى وارتياح لما توسّموا فيهم من الكفاءة لتحقيق ما كانوا هم بذاتهم يدركونه ادراكاً ناقصاً ومبهماً ويسعون في اقتنائه بارادة واهنة

وعليه يكون النوابغ ائمّة في الامّة وقادة في الالفة لا متحكّمين فيها متصرّفين بشؤونها تصرّف المتسيطر . فان القدرة ومطلق السلطان لله وحده ربّ الكائنات يتصرّف بها كما شاءت أحكامه الازلية وكلّ البرايا جمادها مع نباتها حيوانها مع بشرها وملائكتها خاضعة لسلطانه طائعة لأمره الذي لا مردّ له يعين محدّدًا اعمالها دون فرق بين اضطراريها واختياريها طبقاً لعنايته الصمدانية . له الملك والقوة والجبروت وله الحمد والشكران الان وفي كل آن